

العمل الصالح.. عبادة



قُرب الإنسان إلى الله يكون من خلال العمل الصالح.. والعمل الصالح هو العمل الذي فيه مرضاة الله، وهو حُرث الآخرة كما قال الإمام عليّ (عليه السلام): «العمل الصالحُ حُرثُ الآخرة». ويُطلق عدّة مصطلحات قرآنية للعمل الصالح كالعمل الطيّب والصالح في نفسه، الذي يقوم به الفرد بنيّة التقرب إلى الله ونيل رضاه، فمثل هذا العمل هو الذي يرتقي بالإنسان، ويتسلّق به سُلّم الكمال، ويسمّى هذا العمل في الثقافة الإسلامية والقرآنية «عبادة». ولا تُطلق العبادة على الصلاة والصيام والحجّ وما شابهها فقط، بل إنّ كلّ عمل صالح وحَسَنٍ في ذاته ويُفعل بنيّة نيل رضى الله، سيكون عبادة، كما ورد عن أبي عبد الله (عليه السلام) حيث قال: «من أشدّ ما فرض الله على خلقه ذِكْرُ الله كثيرًا، ثمّ قال: لا أعني سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ولا أكبر، وإن كان منه، ولكنّ ذكر الله عند ما أحلّ وحرم، فإن كان طاعة عمل بها، وإن كان معصية تركها». وهذا المعنى هو المراد من العبادة في الآية الكريمة وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (الذاريات/ 56). إنّ الهدف المرسوم للإنسان هو القُرب من الله، وما يرفع الإنسان إلى مقام القُرب هو أعماله الصالحة، إِيَّاهُ يَمُودُّ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ (فاطر/ 10).

إنّ الإيمان الكامل هو الذي يكون القلب معه وحده دون سواه، فتكون جميع تحرّكات هذا الإنسان إلهيّة، وعندها يصبح في أعلى درجات الاستعداد لاستقبال ألطف الحقّ ومواهبه السنيّة. أمّا الوسيلة الفضلى لنيل هذه الدرجة من الإيمان وتعميقها وترسيخها في القلب، فهي العمل الصالح، وَمَنْ يَأْتِهِمْ مَوْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأَوْوَلَيْكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (طه/ 75). حيث إنّ للعمل الصالح مكانة كبيرة وعظيمة جدًّا في الإسلام، لأنّه ثمرة من ثمار الإيمان وربطه عزّ وجلّ بالفوز والسعادة والنجاة في الدُّنيا والآخرة، وأن تركه هو خسارة كبيرة كما قال الله تعالى في سورة العصر: (وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) (العصر/ 1-3). وقال تعالى: (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِرِعَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) (الكهف/ 110).

حثَّ القرآن الكريم في كثير من سوره وآياته على العمل الصالح المقرون بالإيمان بالله تعالى والخالص لوجهه الكريم سبحانه، لأنَّ العمل الصالح هو العمل المرضي عند الله تعالى. قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «إذا أرادَ اللهُ بعددٍ خيراً استعمله». فقيل: كيف يستعمله؟ يا رسول الله؟ قال: يؤفقه لعملٍ صالحٍ قبلَ الموتِ». إنَّ من توفيق الله لعبده أنَّهُ يرشده إلى القيام بأعمال صالحة قبل الموت. ولا يكتفي المؤمن بعمل ما يوافق مصلحته بل يتعدى ذلك إلى القيام بما يعود بالنفع على الآخرين، ولذلك فهو يكون دائم الحركة وسبباً قاصداً لفعل الخير. فبالعمل الصالح تنزل الرحمة وتأتي البركة ويُسْتجاب الدعاءُ ويحصل الأمن والأمان، وبالعَمَل الصالح تثقل موازيننا يوم القيامة. فثمار العمل الصالح تكون آجلة وعاجلة، العمل الصالح يشفع لصاحبه في الدُّنيا والآخرة، فثمره العمل الصالح عاجلة في الدُّنيا وآجلة في الآخرة لقوله تعالى: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ) (فاطر/ 10).

وللعمل الصالح فوائد جمة تعود على المجتمع المسلم، فبه نكون مجتمعاً متماسكاً ومتربطاً يحمل كلُّ معاني الإخاء والصداقة، فيتخلص المجتمع من كافة أشكال الحقد والغيرة من بعضه البعض، خاصةً أنَّهُما أحد أهم الأسباب المدمرة للمجتمعات. وبه ينتعش المجتمع مادياً فيصبح مجتمعاً غنياً، فعندما يُقدِّم الأغنياء للفقراء المال كأحد الأعمال الصالحة، تكون النتيجة باستثمار الفقراء تلك الأموال بمشاريع صغيرة، أو عمل متواضع ممَّا يرقيه مادياً ويجعله قادراً على سدِّ احتياجاته وأفراد عائلته. وبه تُبنى حضارة إسلامية ذات بناء معماري رائع وبيئة نظيفة خالية من الأوساخ والنفايات، فلو قام كلُّ فردٍ مسلم بإمطة الأذى عن الطريق وساعد في البناء لاكتملت الحضارة وأصبحت أعظم من الحضارات الأخرى. ومن خلاله يُبنى مجتمع إسلامي مميز يحمل جميع الصفات الإسلامية ويطبّقها بما يرضي الله عزَّ وجلَّ، فتزدهر الأمة الإسلامية وتعود كما كانت في السابق قويةً ومزدهرة.